الفصل السادس

أبو بكر الصديق أول الخلفاء الراشدين

بدأ أبوبكر عمله خليفة بإنفاذ بعث أسامة بن زيد لغزو أطراف الشام الجنوبية واستشار أبوبكر كبار الصحابة فتقرر النفير العام لمواجهة العدوان الآتى من الشام فلبى المسلمون الدعوة فى حماسة وحمية وسرعان ما أنفذت الجيوش نحو الشمال عقب تجمعهم بالمدينة، وعقد اللواء لأربعة من الأمراء هم شرحبيل بن حسنة ووجهته وادى الأردن، وعمرو بن العاص ووجهته فلسطين، وأبوعبيده بن الجراح ووجهته حمص، ويزيد بن أبى سفيان ووجهته دمشق، وأمر أبوبكر هؤلاء القادة أن يتعارفوا بعضهم مع بعض، وأن يكونوا مددا للجيوش الأخرى إذا دعت الحاجة[1].

سار خالد بن سعيد بن العاص نحو الشام وهزم الجيوش التى كان جمعها الروم، وبعد ذلك توالى قدوم الجيوش الإسلامية إلى الشام وانضم الوليد بن عقبة، وعكرمة بن أبى جهل، وذو الكلاع الحميرى أحد أمراء اليمن إلى خالد بن سعيد بن العاص لكن ماهان قائد جيش الروم استطاع أن يستدرجه إلى مكان قريب من وادى الصفر إلى الشرق من بحيرة طبرية، حتى أطاح به وقطع عليه خط الرجعة واضطره إلى الفرار هو والوليد بن عقبة، تاركا وراءه جيش المسلمين يقوده عكرمة وذو الكلاع فتقهقرا إلى الحدود.

ولكن هرقل قد سير لمهاجمتهم عدة جيوش كثيفة فتبادل القادة الرأى وأشار عليهم عمرو ابن العاص بجمع قواتهم، كما أرسل إليهم أبوبكر كتابا قال فيه: اجتمعوا عسكرا واحدا وألقوا زحف المشركين بزحفكم فأنتم أعوان الله، والله ناصر من نصره وخاذل من خذله.

وانصاع المسلمون لأمر الخليفة واجتمعت قواتهم كلها على شاطئ اليرموك الأيسر ولما رأى الروم ذلك جمعوا قواتهم كلها على الشاطئ الأيمن للنهر ونزلوا فى بطحاء تحيط بها الجبال من ثلاث جهات فى منطقة تسمى واقوصة فعبر المسلمون نهر الأردن إلى شاطئه الأيمن ووقفوا أمام جيوش الروم وكان يقودهم تيودريك (هو أخو هرقل).

ووقف الجيشان وجها لوجه دون أن يتغلب أحدهما على الآخر نحو شهرين، مما أقلق الخليفة فأرسل إلى خالد بن الوليد فى العراق أن سر حتى تأتى جموع المسلمين

(١) ابن الأثير، الكامل، ج٢، ص١٩٥.

باليرموك، فتوجه خالد بن الوليد على رأس جيش كبير يتكون من عشرة آلاف جندى أدرك به المسلمون فى اليرموك وصادف مجيئه أن هرقل كان قد عزز جيوشه بتعيين ماهان قائدا وهو الذى كان قد سبق وأوقع هزيمة بخالد بن سعيد[1].

وبعد أن أعاد المسلمون تنظيم جيشهم حيث جعل أبو عبيدة بن الجراح فى القلب، وعمرو بن العاص على الميمنة ويزيد بن أبى سفيان على الميسرة، ثم دارت رحى القتال، ورغم أن المسلمين اضطروا إلى التقهقر عدة مرات[2] انتصر المسلمون فى النهاية واستمرت الجيوش الإسلامية فى مواصلة مطاردة قوات الروم بأمر من الخليفة الجديد عمر حيث كان قد توفى أبوبكر فى تلك الأثناء رضى الله تعالى عنهما فتوجهت القوات الإسلامية صوب دمشق فى نفس العام الثالث عشر من الهجرة.

حروب الردة:

فى الوقت الذى كان فيه بعث أسامة فى طريقه إلى تخوم الروم كان على أبى بكر أن يعالج هذه الحال التى لم ير المسلمون مثلها منذ فتحت مكة وأسلمت ثقيف.

فجمع أبو بكر كبار الصحابة ليستشيرهم فى قتال مانعى الزكاة، وكان رأى عمر بن الخطاب وطائفة من المسلمين معه ألا يقاتلوا قوما يؤمنون بالله وبرسوله وأن يستعينوا بهم على من خلع الإسلام من عنقه واستدلوا لرأيهم بقول الرسول ﷺ أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا ويشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فإن قالوها فقد عصموا منى مالهم ودماءهم إلا بحقها وحسابهم على الله، فرد أبو بكر قائلا: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال، وقد قال إلا بحقها: ثم أردف هذا الكلام بقوله: والله لو منعونى عقالا [3] أو عناقا [4] كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه.

ويروى أن الفريق الأول لم يرو إلا بحقها وحسابهم على الله، وكان قد سمع هذه الزيادة الصديق، وعلى كلا الروايتين فقد اقتنع عمر وقال: فوالله ما هو إلا أن رأيت أن الله شرح صدر أبى بكر للقتال فعرفت أنه الحق.

(١) دكتور على إبراهيم حسن، التاريخ الإسلامى العام، ص٢٢٥.

(٢) الواقدى، فتوح الشام، ج١، ص١٦٥.

(٣) قيل أراد من العقال: الحبل الذى يعقل به بعير الصدقة لأن على صاحبها التسليم، وإنما يقع القبض بالرباط، وقيل أراد ما يساوى عقالا من حقوق الصدقة وقال المبرد فى الكامل إن المصدق إذا أخذ من الصدقة ما فيها ولم يأخذ ثمنها قيل أخذ عقالا، وإذا أخذ الثمن قيل أخذ نقدا.

(٤) العناق الأنثى من الماعز.

أبو بكر وعمر:

نرى أن ابن الخطاب يقول: يا خليفة رسول الله تألف الناس وارفق بهم. ويستشهد بالحديث ونرى أبا بكر يقول: والله لو منعونى عقالا لقاتلتهم عليه. ويملك الصديق الغضب فيصيح بأعلى صوته: يا ابن الخطاب رجوت نصرتك وجئتنى بخذلانك، أجبار فى الجاهلية وخوار فى الإسلام؟ إنه قد انقطع الوحى وتم الدين أو ينقص وأنا حي؟ فعمر يقف موقف اللين وأبو بكر يقف موقف الشدة ويحتدم الجدال أيما احتدام وكلاهما على غير المعهود فيه من خلقه، فما هو السبب يا ترى؟

السبب كما يقول الأستاذ العقاد [1] إن عمر متصرف بالرأى وأنه جرىء فيما يرى وأنه قوى الإيمان وأنه عادل متحرج فى عدله فهو قد أراد أن يؤجل الزكاة إلى يوم تتبدل فيه الأحوال وهو واثق بأن مصير الإسلام إلى ثبات وإن ضل من ضل، كان لديه التحرج من القصاص لعدم وضوح الحق فيه، ولكن لما تبين الحق شرح الله صدره ورأى ما رآه صاحبه [2]، والواقع أن أبا بكر كان على صواب عظيم، فقد كان السبب فى انقسام من سبقونا من أهل الكتاب، أنهم لم يكن بينهم مثل أبى بكر، فتعددت كنائسهم ومذاهبهم وكتبهم المقدسة.

يقول عبد الله بن مسعود رضى الله عنه: لقد قمنا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاما كدنا نهلك فيه لولا أن من الله علينا بأبى بكر، أجمعنا على ألا نقاتل على ابنة مخاض وابنة لبون ونعبد الله حتى يأتينا اليقين فعزم الله لأبى بكر على قتالهم فوالله ما رضى منهم إلا بالخطة المخزية أو الحرب المجلية، فأما الخطة المخزية فأن يقروا بأن من قتل منهم فى النار ومن قتل منا فى الجنة وأن يدوا قتلانا ونغنم ما أخذنا منهم وأن ما أخذوا منا مردود علينا، وأما الحرب المجلية فأن يخرجوا من ديارهم [3].

قتال أهل الردة وموقعة ذى القصة:

صمم أبو بكر على قتال أهل الردة وصحت عزيمته وصممت قريش على مساعدته مهما لاقت فى ذلك من صعاب، ولم تضن فى هذا السبيل بفلذات أكبادها وساداتها وأشرافها

(١) فى عبقرية الصديق ص ١٣٨ – ١٥٥.

(٢) عباس محمود العقاد: عبقرية الصديق، ص ١٥٠.

(٣) دكتور محمود زيادة: تاريخ العالم الإسلامى، ص ٢٦.

فوجهتهم للحرب، وبرهنت على أنها زعيمة العرب وأحقهم بهذا الأمر، وأقدرهم على الاضطلاع به، فقد وقف رجالات قريش من أمثال على وعمر وخالد بن الوليد وأبى عبيدة وعمرو بن العاص وسعد بن أبى وقاص وعكرمة بن أبى جهل ومعاوية بن أبى سفيان وزيد ابن الخطاب خلف أبى بكر صفا واحدا كأنياب الغضنفر لن ترام، تقرر القتال، ولكن الصديق رأى ألا يعاجل القوم به حتى يعود جيش أسامة لأن فيه معظم القوة الإسلامية، وبينما هو فى انتظار عودة الجيش حرض طليحة الأسدى من تبعه من عبس وذبيان وغطفان وفزارة وطيئ على مهاجمة المدينة.

فسارت هذه الجموع حتى نزلت على مقربة من المدينة فلم تحملهم البلاد فافترقوا فرقتين فرقة نزلت بذى القصة [1] وفرقة أقامت بالأبرق من الربذة [2] وأرسل رؤساء هذه الجموع وفودا منهم إلى المدينة نزلوا على وجوه الناس وتحملوا بهم على أبى بكر على أن يقيموا الصلاة وألا يؤتوا الزكاة فكان جواب أبى بكر: والله لو منعونى عقالا لجاهدتهم عليه وردهم فرجعت هذه الوفود إلى من بعثوهم وقد أطلعوا على عورة المدينة وعرفوا أنها مكشوفة ليس بها من يدافع عنها وأدرك أبو بكر منهم ذلك فجمع الناس وقال لهم: إن الأرض كافرة وقد رأى وفدهم منكم قلة وإنكم لا ترون أليلا تؤتون أم نهارا وأدناهم منكم على بريد، وقد كان القوم يأملون أن نقبل منهم ونوادعهم، وقد أبينا عليهم ونبذنا عهدهم فاستعدوا وأعدوا: ثم إنه دعا إليه عليا والزبير وطلحة وعبد الله بن مسعود وجعلهم على مداخل المدينة، وأمر سائر الناس بملازمة المسجد فى عدة القتال، خوف الغارة من العدو فما لبثوا إلا ثلاثا حتى طرق العدو المدينة غارة مع الليل وخلفوا بعضهم بذى حسى ليكون لهم ردءا.

فلما كانوا على أبواب المدينة صدهم على وأصحابه ووصل الخبر إلى أبى بكر فخف للقائهم، مع من كان بالمسجد فردوا العدو واتبعوه حتى بلغوا ذا حسى فخرج عليهم أهل الردة بأنحاء [3] قد نفخوها وربطوا فيها حبالا ودحرجوها بأرجلهم على الأرض فنفرت منها إبل المسلمين ورجعت بهم إلى المدينة، ولكن لم يصرع أحد من المسلمين.

وظن الكفار أنهم قد انتصروا فبعثوا إلى أهل ذى القصة فقدموا عليهم وبات أبو بكر يعبئ الناس وخرج على تعبئته يمشى فما طلع الفجر إلا وهم والعدو على صعيد واحد دون

(١) أقرب محله من المدينة على طريق نجد.

(٢) والربذة واقعة موقع الحناكية، وهى على بعد ٢٤ فرسخا من المدينة أى نحو ١٢٠ ك متر.

(٣) أنحاء جمع نحى، وهى أوعية من جلود.

أن يسمع العدو لهم همسا أو حسا، وكيف يسمع وقد اطمأن إلى انتصاره وبات ناعم الجفن بنوم هانئ؟ فما شعروا بالمسلمين حتى وضعوا فيهم السيوف، فما ذر قرن الشمس حتى ولى العدو الأدبار، وغنم المسلمون إبلهم واتبعهم أبو بكر حتى نزل بذى القصة، وكان أول الفتح ووضع بها النعمان بن مقرن فى عد، ورجع إلى المدينة.

نتيجة الموقعة:

كان انتصار المسلمين فى هذه الموقعة كانتصارهم فى بدر وما أشبه الليلة بالبارحة فقد وقف المسلمون يوم بدر ومحمد صلى الله عليه وسلم على رأسهم وعددهم ثلاثة عشر وثلاثمائة يقاتلون المشركين من أهل مكة وعددهم يقرب من الألف وهنا وقف أهل المدينة وأبو بكر على رأسهم وهم قلة أمام هذه الجموع الغفيرة من عبس وذبيان وغطفان وفزارة وطيئ، ويومئذ تحصن محمد بإيمانه وإيمان أصحابه وبنصر الله إياهم على المشركين، وهنا تحصن أبو بكر بإيمانه وإيمان أصحابه فانتصر كما انتصر الرسول ثم كان لنصره الأثر البالغ فى حياة المسلمين لأنها برهنت للعرب على أن فى مقدور المسلمين أن يصدوا كل معتد حتى فى غيبة الجيش الذى فيه زهرة شباب المسلمين وأرجعت بعض القبائل للإسلام، وهرع المسلمون من كل قبيلة يؤدون الزكاة إلى خليفة رسول الله، وكان أول الذى أقبلوا يؤدون الزكاة صفوان والزبرقان من رؤساء بنى تميم وعدى بن حاتم الطائى من رؤساء طيئ.

عودة أسامة بجيشه وعقد الألوية لمحاربة المرتدين:

بعد ذلك بقليل وصل جيش أسامة فى رجب سنة ١١ هـ، سبتمبر سنة ٦٣٢ فقال أبو بكر لأسامة وجنده استريحوا وأريحوا ظهوركم، ثم استخلف أسامة على المدينة، وخرج فيمن كان معه فناشده المسلمون قائلين: ننشدك الله يا خليفة رسول الله أن لا تعرض نفسك فإنك إن تصب لم يكن للناس نظام ومقامك أشد على العدو فابعث رجلا فإن أصيب أمرت آخر: فقال: لا والله لا أفعل، ولأواسينكم بنفسى: وسار إلى ذى حسى وذى القصة حتى نزل بالأبرق فقاتل من به وألجأهم إلى الفرار وأخذ الحطيئة أسيرا، وأرعى خيل المسلمين أرضهم، وعاد إلى المدينة وأقام بها حتى إذا اطمأن إلى أن جيش أسامة قد جم خرج به إلى ذى القصة فوزع الجند أحد عشر لواء جعل على كل لواء منها أميرا، وقد راعى الصديق فى التوزيع أن تكون القوة الموجهة متناسبة فى عددها وفى إمارتها مع قوة القبائل التى وجهت إليها ومبلغ إلحاح هذه القبائل فى الردة، ولذلك:

١ – وجه خالد بن الوليد على رأس اللواء الأول لقتال طليحة بن خويلد الأسدى ببزاخة فإذا فرغ منه سار إلى مالك بن نويرة زعيم بنى تميم بالبطاح، وكان بنو أسد وبنو تميم أقرب القبائل المرتدة إلى المدينة فكان طبيعيا أن يبدأ المسلمون بهم لتفت هزيمتهم فى أعضاد غيرهم، وخالد أجدر القواد بأن يعقد النصر له لواءه.

٢ – وجعل عكرمة بن أبى جهل على رأس اللواء الثانى ووجهه لقتال مسيلمة باليمامة.

٣ – وجعل شرحبيل بن حسنة على اللواء الثالث وأمره بمعاونة عكرمة على مسيلمة فإذا فرغا منه لحق شرحبيل بقضاعة مددا لعمرو بن العاص.

٤ – وعقد اللواء الرابع للمهاجر بن أبى أمية ووجهه لقتال جنود الأسود العنسى باليمن ولقتال عمرو بن معد يكرب الزبيدى وقيس بن مكشوح المرادى ورجالهما فإذا فرغ منهم قصد إلى كندة وحضرموت ليقاتل الأشعث بن قيس والمرتدين معه.

٥ – وبعث اللواء الخامس وكان عليه سويد بن مقرن إلى تهامة اليمن.

٦ – وأرسل العلاء بن الحضرمى على رأس اللواء السادس إلى البحرين لقتال الحطم بن ضبيعة.

٧ – وعقد اللواء السابع لحذيفة بن محصن لقتال ذى التاج لقيط بن مالك المتنبئ فى عمان.

٨ – ووجه اللواء الثامن وعليه عرفجة بن هرثمة إلى مهرة.

٩ – ووجه اللواء التاسع وعليه عمرو بن العاص لقتال قضاعة.

١٠ – وأرسل اللواء العاشر لقتال بنى سليم ومن معهم من هوازن، وكان أميره معن بن حاجز السلمى "طرفه بن حاجز".

١١ – وعقد اللواء الأخير (الحادى عشر) لخالد بن سعيد بن العاص وبعثة إلى مشارف الشام.

* * *

دعوة المرتدين قبل إرسال الجيوش

بعد أن عقد أبو بكر الألوية لم يسير أولها حتى بدأ بهجوم سلمى مهد به للحرب خير تمهيد فقد أذاع فى الناس من شبه الجزيرة جميعا كتابا (منشورا) بدأه بحمد الله والثناء عليه وذكر بعثه محمدا بالحق من عنده بشيرا ونذيرا، ثم أشار إلى وفاة رسول الله بعد أن بلغ ما أمره الله به أن يبلغه للناس، وبين أنه بشر مات كما يموت كل إنسان، ودعاهم إلى الإسلام وعدم متابعة الهوى والشيطان، وأنذرهم بالقتال، وبعد أن ذكر ذلك قال: وإنى قد أنفذت لكم فلانا فى جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان وأمرته ألا يقاتل أحدا ولا يقتله حتى يدعوه إلى داعية الله فمن استجاب وأقر وكف وعمل صالحا قبل منه وأعانه عليه ومن أبى أمرته أن يقاتله على ذلك ثم لا يبقى على أحد منهم قدر عليه وأن يحرقهم بالنار ويقتلهم كل قتلة وأن يسبى النساء والذرارى ولا يقبل من أحد إلا الإسلام فمن اتبعه فهو خير له ومن تركه فلن يعجز الله وقد أمرت رسولى أن يقرأ كتابى فى كل مجمع لكم والداعية الأذان [1].

(١) راجع نص الكتاب فى الطبرى ج٣ ص ٢٢٦ ، ٢٢٧، تاريخ الإسلام السلام السياسى ج١ ص ٢٥٨ – ٢٦٠، وتاريخ الأمم فى الإسلام للخضرى بك ج١ ص ٢٦٣ ، ٢٦٤.

حملت الرسل هذه الرسالة لتقرأ فى مجامع الناس وأنديتهم قبل أن تتقدم إليهم الجيوش، ثم كتب إلى القواد عهدا صورته واحدة يأمرهم فيه بالجد فى أمر الله ومجاهدة من تولى عنه ورجع عن الإسلام إلى أمانى الشيطان ويأمرهم أن لا يردوا المسلمين عن قتال عدوهم وينصحهم بألا يدخلوا فى المسلمين حشوا وأن يقتصدوا بالمسلمين فى السير والمنزل ويأمرهم بحسن الصحبة ولين القول [1] أن وجه الخليفة الجيوش وعهد إليهم بما عهد رجع إلى المدينة ومعه كبار الصحابة كعلى وعمر والزبير وعثمان، ليكونوا معه فى مركز القيادة العامة فيستشيرهم فى مهام الأمور فى تلك المحن القاسية والظروف العصيبة.

وبدأ رضى الله عنه يشرف على حركات الجنود فى مختلف الميادين ويتلقى كتب القادة فيمد من يراه منهم فى حاجة إلى المدد، ويوجه بعضهم لمساعدة البعض الآخر إذا دعا الأمر إلى ذلك.

توجهت الحملات الإسلامية إلى الجهات التى عينت لها ومن الصعب على المؤرخ ترتيب تلك الحملات ترتيبا تاريخيا لأنه لا توجد نصوص تعين الأيام والشهور التى وقعت فيها، غير أننا نقول إنها مكثت مستمرة سنة كاملة عقد فيها النصر للإسلام، وإليكم أهم الحملات:

حملة خالد بن الوليد وموقعة بزاخة:

١- **خالد وطليحة:** اجتمع لخالد بذى القصة من ٤٠٠٠ إلى ٥٠٠٠ وكانت وجهته كما أسلفنا طليحة ببزاخة (ماء لأسد) وأظهر أبو بكر أنه خارج إلى خيبر بجيش حتى يلاقى خالدا فيعينه على جموع المرتدين، ثم إن أبا بكر طلب إلى عدى بن حاتم الطائى وكان قد جاء بالزكاة إلى المدينة عقب موقعة ذى القصة كما سبق أن يذهب إلى قومه يخوفهم عاقبة أمرهم إذا أصروا على ردتهم، فذهب عدى إلى قومه ودعاهم وخوفهم فأجابوه وقالوا له: استقبل الجيش فأخره عنا حتى نستخرج من عند طليحة لئلا يقتلهم: فاستقبل عدى خالدا وهو بالسنح وأخبره بالخبر فتأخر خالد، وكانت الخطة الموضوعة لخالد أن يبدأ بطيئ قبل أن يصل إلى بزاخة، ولذلك جنح إلى أجا وأظهر أنه خارج إلى خيبر لينضم إلى جيش الخليفة.

أرسل الطائيون إلى أبنائهم بالبزاخة يطلبون منهم الإسراع بالحضور لمساعدتهم على

(١) نص الكتاب فى الخضرى بك ج١ فى صفحتى ٢٦٣ ، ٢٦٤.

جند المسلمين قبل أن يهاجموا طليحة، وراقت هذه الحجة طليحة فتركهم ينصرفون إلى طيئ، وتحدث إليهم قومهم بحديث عدى فاقتنعوا وعاد عدى إلى خالد بإسلامهم.

وارتحل خالد نحو الأنسر يريد جديلة فقال له عدي: إن طيئا كالطائر وإن جديلة أحد جناحى طيئ فأجلنى أياما لعل الله أن ينقذ جديلة كما أنقد الغوث فأجابه خالد إلى طلبه، فذهب عدى إلى جديلة ولم يزل بهم حتى بايعوه وجاء بإسلامهم إلى خالد ولحق بالمسلمين منهم ألف راكب، فكان خير مولود ولد فى أرض طيئ وأعظمه عليهم بركة.

وإذ ذاك سار خالد بالجميع إلى بزاخة حيث التقى الجمعان، وكان الذى يقود المعركة عيينة بن حصن الفزازى، وكان طليحة يقيم فى بيت من الشعر ملتفا فى كساء له يتنبأ للناس فلما حمى وطيس الحرب ورأى عيينة قوة خالد والمسلمين جاء إلى طليحة وقال له هل جاء جبريل بعد؟ قال لا، فرجع عيينة حتى إذا ازداد وطيس الحرب ضرا ما كر راجعا إلى طليحة يقول: لا أبا لك أجاءك جبريل بعد؟ قال: لا والله. فقال عيينة: حتى متى قد والله بلغ منا، ثم رجع فقاتل حتى رأى خيل خالد تكاد تحيط به وبأصحابه، فرجع إلى طليحة فزعا يكرر. هل جاءك جبريل بعد؟ قال: نعم، قال: فماذا قال لك؟؟ قال لى: إن لك رحى كرحاه وحديثا لا تنساه، فقال عيينة: قد علم الله أنه سيكون حديث لا تنساه انصرفوا يا بنى فزارة فإنه كذاب، فانصرفوا وانهزم الناس يغشون طليحة يقولون: ماذا تأمرنا؟ وكان طليحة قد أعد فرسه عنده وهيأ بعيرا لامرأته النوار، فقام وركب فرسه وحمل امرأته ونجا بها وهو يقول: من استطاع أن يفعل منكم مثل ما فعلت وينجو بأهله فليفعل.

وسار إلى الشام ونزل على كلب ثم عاد قومه حين بلغه إسلامهم، ليفرط فى أمر من أمور الدين ليصل إلى غرض من أغراض الدنيا مهما كانت الأمور، وأيا كانت الدواعى.

فما بالنا بخالد بن الوليد، وهو من كبار رجالات الإسلام فى العصر الأول، وفى تقديرنا أن أبا بكر بما فعله مع أبى قتادة، ومع خالد، يعتبر فى التاريخ من كبار رجال السياسة، فهو قد رأى فى عمل أبى قتادة ما يخالف قواعد الحرب لأنه يشكك الجند فى قائدهم، ويشجعهم على الشكاية بحق وبغير حق، مما يفسد على القواد أمورهم ويجعلهم دائما على خوف، ولم يأخذ قول عمر فى حق خالد قضية مسلمة فعزله أو عاقبه، بل كما رأينا تحت إلحاح عمر استدعاه وناقشه فيما حدث منه فدافع خالد عن نفسه وبين وجهة نظره، واقتنع القائد الأعلى فعفا عنه.

وهذا العمل هو ما تفعله أرقى الدول فى العصر الحاضر، فإنها إذا غضبت على قائد من قوادها أو ممثل من ممثليها لخطأ اقترفه لم تعجل العقوبة حتى لا تضيع هيبته بل ربما منحته رتبة جديدة، فإذا أتم مهمته حاسبته على ما اقترف وقد تعفو عنه لقبول عذره، أو لخدماته العظيمة للدولة.

خالد ومسيلمة:

ذكرنا فيما سبق أن الصديق عقد اللواء الثانى لعكرمة بن أبى جهل وأمره بالتوجه لمسيلمة، وعقد اللواء الثالث لشرحبيل بن حسنة، وأمره بمعاونة عكرمة وأمرهما بالاجتماع، ولكن عكرمة تعجل بالهجوم ليحرز قصب السبق، فهزمه مسيلمة، وبلغ ذلك شرحبيل وهو بالطريق فتوقف عن المسير وأرسل إلى أبى بكر بنبأ الهزيمة، فغضب أبو بكر وأرسل إلى عكرمة يوبخه فيقول له: يا ابن أم عكرمة لا أرينك ولا ترانى لا ترجعن فتوهن الناس امض إلى حذيفة وعرفجة فقاتل أهل عمان ومهرة ثم تسير أنت وجندك تستبرثون الناس حتى تلقى المهاجر بن أبى أمية باليمن وحضرموت: وكتب إلى شرحبيل يأمره بالانتظار حتى يأتيه خالد، ولكنه تعجل كما تعجل سلفه فهزم أيضا.

عاد خالد من المدينة إلى البطاح، وكان جيش المسلمين مرابطا فيها، وانضم إليه رجال من تميم وطيئ وأسد وغطفان، وقد تصرف خالد تصرفات تدل على مقدرته السياسية وتقدير ما هو قادم عليه فمهد للحرب بمكاتبة بعض التميميين الذين كانوا قد انضموا إلى مسيلمة وقد وفق إلى ذلك، وبمقابلة الرؤساء الذين كانوا يمالئون سجاح بنت الحارث حتى اضطرهم إلى الرجوع إلى بلاد تغلب، بدلا من تركهم وقد ينضمون إلى مسيلمة، وبتحريض من ثبت على إسلامه من بنى حنيفة على مشاغبة مسيلمة، فاستجابوا له وفى هذه الأثناء ورد إليه المدد من الخليفة، ولم يكن هذا المدد دون جيش خالد قوة فقد تألف من رجال المهاجرين والأنصار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين شهدوا بدرا، وشهدوا المواقع مع الرسول، هذا مع أن أبا بكر كان يضن بأهل بدر ويقول: لا أستعمل أهل بدر أدعهم حتى يلقوا الله بصالح أعمالهم، فإن الله يدفع بهم وبالصالحين أكثر مما ينتصر بهم: وإنما خرج الصديق على رأيه ذاك فأمد خالدا بالبدريين وبمن شهدوا المواقع فى عهد الرسول لأن مسيلمة كان قد استفحل أمره وعظم خطره، فكل تضحية فى سبيل القضاء عليه دفع عن دين الله.

ولما ورد إليه المدد، سار إلى اليمامة وجعل على المهاجرين أبا حذيفة بن اليمان وزيد بن الخطاب وعبد الله بن حفص وعلى الأنصار ثابت بن قيس والبراء بن مالك وعلى الخيالة أسامة بن زيد، وعلى كل قبيلة رئيسها.

موقعة عقرباء:

لما سمع مسيلمة بقدوم خالد جهز جيشا عظيما يقدره الطبرى بأربعين ألفا ويقدره غيره بعشرة آلاف، وتقدم به شمالا لمقابلة خالد وعسكر بعقرباء – فى طرف اليمامة والمسافة بينها وبين البطاح ٣٥ ك.م (أى مسيرة عشرة أيام بجيش كبير) – وترك الأموال وراء ظهره.

وأما خالد فإنه بعد أن رتب جيشه ترك قوة صغيرة بالبطاح لتحفظ له خط الرجعة، وسار بالجيش نحو اليمامة فوصلت المقدمة فى مساء يوم إلى القرب من ثنية اليمامة ولقيت سرية من بنى حنيفة خرجت تطلب ثأرا لها فى بنى عامر وبنى تميم قبل أن تشغل بلقاء المسلمين وقتالهم فأدركت ثأرها، وكرت راجعة إلى اليمامة، وبينما هى فى الطريق أدركها جيش خالد فأحاط بها وأسرها، والرواية المشهورة أن خالدا أمر بقتلهم جميعا ما عدا مجاعة فقد استبقاه لشرفه، وليستفيد منه فى حرب بنى حنيفة، فقيده بالحديد وجعله فى رقبته وجعل زوجه أم تميم على حراسته.

وأقبل خالد غداة اليوم الذى ارتهن فيه مجاعة فصف جنده فى وجه مسيلمة صف القتال، وعندما رأى ذلك شرحبيل بن مسيلمة نادى فى قومه قائلا: يا بنى حنيفة قاتلوا فإن اليوم يوم الغيرة فإن هزمتم تستردف النساء سبيات وينكحن غير خطيبات فقاتلوا عن أحسابكم وامنعوا نساءكم.

وبدأ القتال مبارزة على حسب عادة العرب، ثم التحم الجيشان واشتدت الحملة من الميمنة على ميسرة المسلمين فانكسرت وأثر ذلك فى القلب، فرجع القهقرى، واشتد القتال ولم يلق المسلمون حربا مثلها قط، وزال خالد عن فسطاطه ودخله بنو حنيفة فرأوا فيه مجاعة مقيدا بالحديد ورأوا على مقربة منه أم تميم فحمل رجل منهم بالسيف على ليلى يريد أن يقتلها فصاح به مجاعة: أنه لها جار فنهت الحرة عليكم بالرجال وقطع الجند حبال الفسطاط ومزقوه بسيوفهم تاركين مجاعة وليلى ينظران ما الله صانع بالقوم جميعا وفى هذا الموقف الحرج برز خالد إلى الميدان شاهرا حسامه مناديا بشعار (يا محمداه،

يا أصحاب سورة البقرة) فاجتمع إليه الناس، ورأى أن أهل القرى ينسبون الهزيمة إلى البوادى والعكس قال: امتازوا أيها الناس لنعلم بلاء كل حى، ولنعلم من أين نؤتى: فلما امتازوا قال بعضهم لبعض: اليوم يستحى من الفرار وثارت الحمية من جديد فى نفوس المسلمين وسما الإيمان بنفوسهم إلى ما فوق مراتب الحياة، وأظلتهم نسمة من روح الله وأرتهم الحياة لهوا ولعبا، فقال ثابت بن قيس: بئسما عودتم أنفسكم يا معشر المسلمين اللهم إنى أبرأ إليك مما يصنع هؤلاء يعنى أهل اليمامة وأعتذر إليك مما يصنع هؤلاء يعنى المسلمين ثم قاتل حتى قتل، وقال زيد بن الخطاب: لا نحور بعد الرجال والله لا أتكلم اليوم حتى نهزمهم أو أقتل فأكلمه بحجتى، غضوا أبصاركم وعضوا على أضراسكم أيها الناس واضربوا فى عدوكم وامضوا قدما واندفع فى صدر القوم يقاتل ويقتل وجنده من ورائه حتى لقى الله يكلمه بحجته، وصاح أبو حذيفة فيمن حوله، يا أهل القرآن زينوا القرآن بالأفعال، وألقى بنفسه فى المعمعة يقاتل وقومه حتى ضمه الله إليه، وأخذ سالم مولى أبى حذيفة الراية وقال: بئس حامل القرآن أنا إن لم أثبت وقاتل حتى قتل.

بهذه الصيحات وأمثالها رد المسلمون جيوش مسيلمة إلى ما وراء خطوطها الأولى، ولكن لا تزال مستبسلة فى القتال، ورأى خالد أن بنى حنيفة يسقطون حول مسيلمة قتلى لا يبالون الموت فأيقن أن أقرب الطرق إلى النصر قتل مسيلمة نفسه، لذلك داور برجاله حتى كان حياله ثم جعل يستدرجه ليخرج إليه، وأقبل المحيطون بمسيلمة يخرجون إلى لقاء خالد فيلقاهم الموت من سبقه قبل أن يبلغوه، وكثر فى هؤلاء القتل، وشعر مسيلمة بالخزى يركبه لجبنه فساورته نفسه أن يخرج كما خرجوا لكنه أيقن أنه مقتولٌ لا محالة إن خرج فتردد واضطرب وإنه لفى تردده إذ شد خالد عليه وأرهقه فأدبر وزال أصحابه، وصاح خالد فى الناس دونكم لا تقيلوهم: فركبوهم فكانت هزيمتهم، وقالوا لمسيلمة: أين ما كنت تعدنا؟ فقال: قاتلوا عن أحسابكم، ونادى محكم بن الطفيل: يا بنى حنيفة، الحديقة الحديقة: فدخلوها وأغلقوا بابها عليهم، وبعد أن تريث المسلمون قليلا صاح البراء بن مالك: يا معشر المسلمين ألقونى عليهم فى الحديقة، فقالوا: لا نفعل، فقال: والله لتطرحننى عليهم فيها فاحتمل حتى أشرف على الجدار واقتحمها عليهم وقاتل على الباب وفتحه للمسلمين ودخلوها عليهم، هذه رواية وفى رواية أخرى أن المسلمين تسوروا الحديقة من الجدران وحاولوا اقتحام الباب ويظهر أن البراء كان أول من تسور الحديقة وكان أقرب إلى الباب

من غيره وشغل غيره بقتال من فى الحديقة بينما شغل هو بفتح الباب ففتحه لبقية المسلمين الذين كانوا لا يزالون خارج الحديقة، وأيا ما كان فقد دخل المسلمون الحديقة وفتكوا ببنى حنيفة فتكا ذريعا، وكانت مذبحة لم يشهد المسلمون مثلها، وقتل مسيلمة واشترك فى قتله وحشى قاتل سيدنا حمزة يوم أحد ورجل من الأنصار كلاهما قد أصابه، أما وحشى فدفع عليه حربته وأما الأنصارى فقد ضربه بسيفه، وصاح يقول قتله العبد الأسود، وكان وحشى يقول: قتلت خير الناس وشر الناس.

انهدت عزائم بنى حنيفة حين سمعوا الصيحة بموت مسيلمة وأسلموا أنفسهم لا يقاومون وأمعن المسلمون فيهم قتلا فلم تعرف بلاد العرب فى تلك العصور موقعة كان فيها ما كان فى موقعة اليمامة من دماء، فقد قيل إن عدد القتلى فى الميدان سبعة آلاف وبالحديقة مثلها لذلك أطلق على حديقة الرحمن اسم "حديقة الموت".

ولما انتهت الموقعة خرج خالد بمجاعة يرسف فى الحديد ليدل على مسيلمة فجعل يكشف له القتلى حتى مر بمحكم اليمامة وكان رجلا جسيما وسيما فقال هذا صاحبكم، فقال مجاعة: لا، هذا والله خير منه وأكرم هذا محكم اليمامة، ثم دخل الحديقة فإذا رويجل أصفر أخينس فقال مجاعة: هذا صاحبكم قد فرغتم منه، ودعاه إلى الصلح.

الصلح:

فكر خالد فى أمر بنى حنيفة، وأشار عليه عبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبى بكر بمهاجمة الحصون، ولكنه لم ير هذا الرأى بعد أن رأى فداحة الخسائر ومناعة الحصون، وخرج من تفكيره إلى وجوب بث الخيول لتأتيه بمن ليس بالحصون فأتته به ثم استمع إلى ما قاله له مجاعة بأنه ما جاءه إلا سرعان الناس وإن الحصون مملوءة بالرجال، وأنه مستعد للتوسط فى الصلح، وكان قد وثق به بعد الذى كان من جواره أم تميم ومن إخلاصه القول له فى مسيلمة ومن معه، فقبل منه الصلح وصالحه على كل شىء دون النفوس كما يروى ابن الأثير ص ٢٤٧ ج٢ أو على ربع السبى ونصف الصفراء والبيضاء والحلقة والكراع كما يروى البلاذرى فى فتوح البلدان ص ١٠٠.

ولما تم الأمر على هذا طلب مجاعة أن يذهب إلى قومه ليعرض عليهم شروط الصلح فانطلق إليهم وليس فى الحصون إلا النساء والصبيان ومشيخة فانية ورجال ضعفى فألبسهم الحديد وأمر النساء أن ينشرن شهورهن ويشرفن على الحصون حتى يرجع إليهم، فرجع

إلى خالد وقال: قد أبوا أن يجيزوا ما صنعت وقد أشرف لك بعضهم نقضا على وهم من براء، فرأى خالد الحصون مملوءة وقد نهكت المسلمين الحرب وطال اللقاء وأحبوا أن يرجعوا على الظفر، ولم يدروا ما هو كائن لو كان فيها رجال وقتال وقد قتل من المهاجرين ٢٦٠ ومن الأنصار ٣٠٠، وذلك خلا من قتلوا من أهل القبائل وبلغ مجموع القتلى مائتين وألفا ومن بين القتلى ٣٩ من كبار الصحابة وفى الشهداء كثير من حفظة القرآن، وقصارى القول لم يخل بيت من بيوت المدينة من الحزن، ولا يقاس هذا العدد بمن قتل من بنى حنيفة فقد روى أن القتلى بلغ عددهم ٢١ ألفا.

وإزاء هذه الأحوال صالح خالد مجاعة على الذهب والفضة والسلاح، ونصف السبى وقيل ربعه كما يقول ابن الأثير أو نصف الصفراء والبيضاء والحلقة والكراع، وربع السبى كما يقول البلاذرى، وبعد الصلح عرف خالد الحقيقة فقال لمجاعة: ويحك خدعتنى. فقال مجاعة: قومى ولم أستطع إلا ما صنعت.

ووصل كتاب أبى بكر إلى خالد يأمره فيه بقتل كل محتلم، فلم يشأ خالد أن يغدر بالقوم ووفى لهم بشروط الصلح.

ورجع بنو حنيفة للإسلام وبعث خالد بوفد منهم إلى أبى بكر بالمدينة فلما قدموا عليه قال لهم: ما هذا الذى استذل منكم ما استذل؟ قالوا: يا خليفة رسول الله قد كان الذى بلغك مما أصابنا، وقد كان أمرا لم يبارك الله له ولا لعشيرته فيه.

وقد أسمعه هذا الوفد بعض أسجاع مسيلمة مثل: يا ضفدع ابنة ضفدع نقى ما تنقين أعلاك فى الماء وأسفلك فى الطين لا الشارب تمنعين ولا الماء تكدرين، ومثل: والمبديات زرعا والحصادات حصدا والذاريات قمحا والطاحنات طحنا ... إلخ [1].

نتائج عقرباء:

كان يوم عقرباء من الأيام الحاسمة فى تاريخ الإسلام وفى تاريخ العرب.

١- ذلك لأن مسيلمة كان يقول فى صراحة إن نبوة محمد لقريش وليست للناس كافة، وكانت تتطلع إليه الأعين من اليمن وحضرموت ومهرة وعمان والبحرين، وكذلك تتطلع إليه الأعين من بلاط فارس، فلو قدر له أن ينتصر فليس يعلم إلا الله ماذا كان مصير الإسلام؟

٢- انكسرت مقاومة المرتدين فى الأقطار الأخرى فسهلت هزيمتهم.

(١) عبقرية الصديق ص ٤٨ والخضرى ج١ ص ١٧٣ - ١٨٣ والدكتور زيادة ص ١٥ - ١٩.

٣- كان قتل كثير من حفظة القرآن سببا فى جمع القرآن فى خلافة أبى بكر مخافة أن يستحر القتل فى سائرهم من بعد، هذا الجمع الذى أدى إلى توحيد القرآن بلغة مضر فى عهد عثمان، فظل كتاب الله أساسا ثابتا لكلمة الحق.

٤- ختمت هذه المعركة دورا وفتحت دورا آخر، ذلك أنه لو هزم المسلمون فى هذه الموقعة لبقى العرب منزوين فى جزيرتهم ولاحتفظ الأكاسرة بملكهم فى العراق ودولتهم فى فارس وخراسان، ولما بكى هرقل ضياع سوريا.

٥- اطمأن أبو بكر بعد الانتصار على مسيلمة إلى مصير الإسلام وسكنت نفسه، وآن لخالد بعد هذا أن يستريح فتحول إلى واد من أودية اليمامة يقال له الوبر أقام به إلى أن جاءه كتاب من أبى بكر يأمره فيه بالتوجه للعراق أو بالحضور للمدينة.

حملة العلاء بن الحضرمى:

كان بعض أهل البحرين قد وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى السنة العاشرة، وأسلم فأرسل الرسول معهم العلاء بن الحضرمى يعلمهم الإسلام، واختار المنذر ابن ساوى العبدى عاملا عليهم، ومات المنذر بعد وفاة النبى بقليل فارتد أهل البحرين من بنى بكر وعبد القيس عن الإسلام، وأدت ردتهم إلى فرار العلاء بن الحضرمى" فأما عبد القيس فقد قيض الله لها أخا صالحا وهو الجارود العيدى فمحضهم النصح، وكان قد بلغه أنهم قالوا: لو كان محمد نبيا لم يمت فقال لهم: تعلمون أنه كان لله أنبياء فيما مضى فما فعلوا؟ قالوا: ماتوا: قال: فإن محمد صلى الله عليه وسلم مات كما ماتوا، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فشهد قومه كشهادته وعادوا إلى إسلامهم وثبتوا عليه.

وأما بنو بكر فاستمروا على ردتهم وحاولوا بزعامة الحطم بن ضبيعة أن يرجعوا الجارود والذين معه عن إسلامهم، ولكن ذهبت محاولتهم سدى.

ولما رأى المرتدون ثبات الجارود ومن معه على الإسلام فكروا فى أمر يقوى به جمعهم فقالوا: نرد الملك فى المنذر بن النعمان بن المنذر، وكان يسمى بالغرور: فملكوه عليهم وخرج الحطم حتى نزل القطيف وهجر واستغوى من بها من الأبناء - مولدة الفرس - كما ضم إليه من لم يكن دخل الإسلام من قبل، وأمده بلاط فارس بالعدة والعتاد وحاصر الجارود ومن معه وشدد عليهم الحصار حتى كادوا يهلكون جوعا.

وبينما هم كذلك كان أبو بكر قد رد العلاء بن الحضرمى إلى البحرين لقتال المرتدين، ولم يذهب العلاء إليها حتى كان خالد بن الوليد قد قضى على مسيلمة وأتباعه.

لذلك أسرع من عاد إلى الإسلام من بنى حنيفة ينضمون إلى العلاء حين مر باليمامة فقد انضم إليه ثمامة بن أثال الحنفى فى المسلمين من قومه، وقيس بن عاصم المنقبرى وأعطاه بدل ما كان قسم من الصدقة بعد موت النبى صلى الله عليه وسلم، كما انضم إليه الكثير من شيوخ القبائل الذين رغبوا فى البرهنة على إسلامهم فسار بالجميع حتى وصل إلى البحرين، ونزل من جهة هجر وأرسل إلى زعيم عبد القيس الجارود يشد عزمه وعزيمة من معه، وخندق كل فريق على نفسه، وجعلوا يتراوحون القتال ثم يرجعون إلى خنادقهم وأقاموا على هذا الحال مدة شهر لاحت للمسلمين بعده فرصة استغلوها.

ذلك أنهم سمعوا فى عسكر المشركين ضوضاء شديدة كأنها ضوضاء هزيمة أو قتال فأرسل العلاء من يستعلم الخبر فجاءه بأنهم سكارى، فخرج المسلمون من خنادقهم واقتحموا عليهم معسكرهم ووضعوا السيف فيهم وجعلوا يقتلون منهم كل من أصابوا، وفر المرتدون هربا، فإذا هم ما بين مترد فى الخندق وناج لا يعرف لنفسه مستقرا، ومأسور، ومقتول، وكان من بين القتلى الحطم بن ضبيعة ومن بين الأسرى المنذر بن النعمان، والذى أسلم وهو يقول: إنى لست بالغرور، ولكنى المغرور، وقد عفا العلاء عنه.

واضطر الذين نجوا من الموت أو الأسر أن يعبروا الماء فى السفر إلى جزيرة دارين – وهى من جزر الخليج الفارسى تواجه البحرين – فعبر خلفهم المسلمون على الظهر، وانتصروا عليهم وغنموا مغانم كثيرة.

وبذلك ضرب الإسلام بجرانه فى البحرين، وكتب العلاء إلى أبى بكر بهذا النصر المبين.

يقودهم فى تلك الحركة "قيس بن عبد يغوث بن مكشوح" وقد جد فى تفريق الأنباء فقاومه منهم فيروز وأجلاه عن صنعاء.

وفى هذا الوقت وصل المهاجر بن أبى أمية، وعكرمة بن أبى جهل وحاربا المرتدين فهزموهم، وأرسلا قيس بن عبد يغوث وعمرو بن معد يكرب إلى أبى بكر فعفا عنهما، وساهم عمرو فى فتح فارس.

عكرمة والمهاجر فى حضرموت:

استعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم على بلاد حضرموت "زياد بن لبيد" الأنصارى على حضرموت، و"عكاشة بن أبى أمية" على السكاسك والسكون، و"المهاجر بن أبى أمية" على كندة، استعمله رسول الله ولم يخرج إليها بسبب مرضه وأناب عنه فى عمله

زياد بن لبيد، واستمر الأمر كذلك حتى توفى الرسول فبعثه أبو بكر لقتال من باليمن ثم المسير بعد إلى عمله، وكان سبب ردة كندة الخلاف بينهما وبين زياد على بكرة وقع عليها ميسم الزكاة خطأ، واشتد هذا الخلاف واستفحل بين الطرفين حتى أدى إلى القتال فنادوا بمنع الصدقة واستطاع زياد أن يتغلب على المتذمرين فى كندة بمن ناصره من رجال السكون الذين حافظوا على إسلامهم وهاجم زياد بنى عمر بن معاوية فى غفلة منهم فقتل رجالهم وسبى نساءهم وسار بهن وبالأموال فى طريق يفضى إلى عسكر الأشعث بن قيس زعيم كندة، فغضب لقومه وخرج فقاتل ابن لبيد واسترد السبى، فكتب زياد إلى المهاجر يستنصره، فسار المهاجر من صنعاء وسار عكرمة من عدن فالتقيا بمأرب وشرعا يعبران الصحراء الرملية التى بين مأرب وحضرموت، وبينما هم سائران إذ وصل المهاجر كتاب من زياد يستحدثه فاستخلف عكرمة على الجيش وتعجل فى كتيبة سريعة حتى إذا التقى بجيش زياد هاجم الأشعث فهزمه وقتل رجاله، وفر الأشعث والناجون معه فالتجأوا إلى حصن الـنجير فحصرهم المسلمون وحضر عكرمة فاشتد الحصار، فخرج الأشعث يطلب الصلح على شرط أن يؤمنوا تسعة من رجاله وأهلهم ويفتح الحصن للمسلمين، فأجابه المهاجر إلى ما طلب، وكتب الأشعث الكتاب بأسماء أهله ونسى يكتب اسمه معهم، ثم جاء بالكتاب فختمه وأخذه المهاجر وفتح الحصن للمسلمين فدخلوه، فلم يدعوا مقاتلا إلا ضربوا عنقه، وأخذوا الأموال والسبى، ودعا المهاجر النفر الذين ذكرهم الأشعث فى كتابه فأطلق سراحهم.

ولما لم يكن اسم الأشعث فى الكتاب أمر به فشد وثاقه وهم بقتله لولا أن تدخل عكرمة فى الأمر، فقال: أخره وأبلغه أبا بكر فهو أعلم بالحكم فيه: فسيره إلى أبى بكر مع السبى فجعلوا يلعنونه ويلعنه المسلمون حتى وصل إلى أبى بكر ومثل بين يديه فأنبه على ما صنع، وبعد مناقشات طويلة حقن دمه، ورد عليه زوجته أم فروة أخت الصديق.

فتح العراق وإيران

كانت الامبراطورية الفارسية قبيل الفتح العربى – الذى بدأ منذ سنة ٢١ هـ – ٦٣٤م – مقسمة إلى إقليمين مختلفين فى عناصر السكان والتوجيه الجغرافى والحياة الاجتماعية: فقد كانت مقسمة إلى إقليم العراق العجمى الذى يمتد شرقا حتى سلسلة الجبال الإيرانية، وهذا الإقليم ثقافته سامية منذ القدم وحياته زراعية وكانت عاصمته المدائن.

أما الإقليم الآخر فهو إيران الخالصة، أو الهضبة الإيرانية الصميمة التى تمتد من سلسلة جبال إيران حتى هضاب آسيا الوسطى[١] وكانت عاصمتها مدينة اصطخر.

كانت فارس فى تلك الفترة تحكمها الأسرة الساسانية، هذه الأسرة التى تحتل من تاريخ إيران القومى مكانا عظيما بسبب التطورات التى صحبت ظهورها، خصوصا بعد الثورة التى أعلنها أردشير مؤسس هذه الأسرة سنة ٢١٢م[٢] وكانت فارس ضحية لوضعها الجغرافى، ذلك أن السياسة الفارسية كانت من أهدافها حماية الوطن من ثلاثة أعداء: البيزنطيين فى أرمينيا وآسيا الصغرى، والقبائل العربية التى كانت لا تكف عن الإغارة على بادية العراق، والترك[٣] الذين كانوا يغيرون من وطنهم القديم إغارات غير منظمة على الحدود الفارسية الشمالية الشرقية، والتى بدأت تشتد على خراسان منذ القرن الرابع الميلادى، وأصبحت هذه الغارات خطرا عظيما يتهدد هذه المنطقة الهامة التى كانت تمثل قلب الحضارة الفارسية[٤].

وكان الساسانيون يسترضون الأتراك حينا ليتفرغوا للبيزنطيين، وكان البيزنطيون فى حربهم مع الساسانيين يمدون أيديهم للأتراك فى أكثر من مناسبة ليشترك الطرفان فى جهد مشترك للقضاء على الساسانيين، وفى الوقت نفسه كانت الدولة الساسانية تصارع العرب، وقد أقام الساسانيون دولة المناذرة كإمارة عازلة تدفع عنهم خطر البدو وتحمى أطراف الدولة من ناحية العراق[٥]، غير أن الدولة الساسانية قضت على هذه الإمارة قضاء تاما فى مستهل القرن السابع الميلادي، فأدى ذلك إلى إفساح المجال أمام الغزوات العربية لتتوغل فيما بعد فى منطقة العراق[٦].

ورغم أن الفتح العربى للعراق وإيران كان فى الحقيقة أهم الأحداث فى تاريخ الشرق الأوسط لما ترتب عليه من نتائج بعيدة الأثر فى تاريخ هذا الشرق وحضارته، فقد اختفت

(١) دكتور حسن أحمد محمود: الإسلام والحضارة العربية فى آسيا الضغرى بين الفتحين العربى والتركى، دار الفكر العربى ص ٨ ، ٩.

(٢) كريتنس: إيران فى عهد الساسانيين – القاهرة ١٩٥٧م ، دكتور حسن أحمد محمود – المرجع السابق ص ٢.

(٣) الدكتور حسن أحمد محمود: المرجع السابق ص ٢.

(٤) أسد رستم: الروم فى سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب ج١ بيروت ١٩٢٥ ص ٢٢٦، الدكتور حسن أحمد محمود: المرجع السابق ص٤.

(٥) كريستنس: إيران فى عهد الساسانيين ص ٣٥٨.

(٦) دكتور حسن أحمد محمود: الإسلام والحضارة العربية ص ٥.

الدولة الساسانية التى كانت تلعب الدور الرئيسى منذ القرن الثالث الميلادى، وكان وجود الدولة الساسانية يعد أهم ملامح تاريخ الشرق الأوسط.

ومن الغريب أن هذه الأحداث على أهميتها غامضة إلى أبعد حدود فهى ما زالت فى حاجة إلى مزيد من البحث، ولعل السبب فى هذا أن المصادر البيزنطية المعاصرة للفتح العربى لفارس لم تعن بتدوين أخبار هذا الفتح بسبب انشغال الدولة البيزنطية بأحداث الفتح العربى لأراضيها، على حين نجد الكتب الفارسية قد ضاع أكثرها بعد انتهاء المقاومة، فلم يبق إلا أن ندرس هذه الأحداث من المصادر الغربية، علما بأن العرب دونوا هذه الأخبار بعد حوادث الفتح بفترة طويلة[1].

ولما كانت الإمبراطورية الفارسية تتألف من أقاليم جغرافية ثلاثة: العراق العربى والعراق العجمى – الذى يقع بين دجلة والفرات ويمتد شرقا حتى سلسلة الجبال الإيرانية – والإقليم الثالث وهو الهضبة الإيرانية الصميمة التى تمتد من سلسلة جبال إيران حتى هضاب آسيا الوسطى [2] فقد كان إقليم من هذه الأقاليم يمثل مرحلة من مراحل الفتح قائمة بذاتها لها اتجاهاتها ومقوماتها، كما أن كل مرحلة منها ترتبط بمعركة شهيرة قررت مصير الإقليم ومكنت المسلمين من التغلب، ولنضرب لذلك مثلا فنقول: إن إقليم العراق العربى تقرر مصيره بعد القادسية والإقليم الأخير تقرر مصيره بعد معركة نهاوند[3]، وقد بدأت المرحلة الأولى للفتوح الإسلامية للعراق بعد أن كتب المثنى بن حارثة الشيبانى إلى الخليفة أبى بكر يطلب أن يأذن له بفتح العراق[4]، بعد أن اكتشف المثنى بن حارثة معاونة الفرس للمرتدين فى البحرين، بالعتاد والرجال.

لذلك فقد كان أمرا طبيعيا أن يوافق أبو بكر على غزو العراق حتى لا يقضى على الدعوة الإسلامية ولرد عدوان فارس بتعاونها مع المرتدين ضد المسلمين.

ومن غريب الأمر أن الدولة الساسانية واجهت رد العدوان الإسلامى باستخفاف شديد، إذ عهدت إلى الحاميات المحلية وبعض العرب المرتزقة بدفع هذا الغزو، وهو الأسلوب القديم نفسه الذى كانت تواجه به الغزاة العرب قبل الإسلام.

---

(١) المرجع السابق ص ٩.

(٢) الدكتور حسن أحمد محمود: الإسلام والحضارة العربية ص ٩.

(٣) الدكتور حسن أحمد محمود: الإسلام والحضارة العربية ص ١٠.

(٤) البلاذرى: فتوح البلدان ص ١٥٠ – ١٥١.

وكان نصر المسلمين عند الحيرة هو الذى قرر مصير العراق العربى، والسبب أن فتح الحيرة تم بعد معاهدة معروفة تسمى معاهدة الحيرة، وهى تشبه المعاهدات المألوفة من حيث ضمانها لحرية العقيدة وحرمة النفس والمال وتنظيمها لوضع أهل الذمة، فكانت هذه المعاهدة ذات أثر عظيم فى نفوس الطبقات الفقيرة من سكان العراق العربى، والعراق العجمي، بل كان فتح الحيرة نموذجا للفتوح الإسلامية التى شهدتها إيران فيما بعد، وأصبحت الحيرة بعد فتحها قاعدة إسلامية كبرى تركز فيها الإمدادات والقوات لإتمام المراحل الأخرى[1].

أما المرحلة الثانية وهى فتح العراق العجمى فتتمثل فيها المقاومة الحقيقية للإمبراطورية الفارسية مستخدمة أسلحتها كلها، فكان أن قامت بحشد قواتها كلها وإلقاء هذه القوات فى معركة فاصلة[2] كما عمدت الدولة إلى التجنيد العام الشامل ووزعت الفرق فى كل أنحاء الأرض حتى سيطر عليها الجيش الإسلامى، وفى نفس الوقت أثاروا السكان وألبوهم على المسلمين حتى نقضوا العهود والمواثيق[3].

ويبدو أن المسلمين من ناحيتهم لم يكونوا أقل إدراكا لقيمة هذا الصراع وأثره فى تحرير مصير الإسلام، وكان عمر فى ذلك الوقت قد ولى الخلافة، واتخذ المسلمون خطوات بعيدة الأثر.

ويتمثل موقف المسلمين فى كتاب عمر إلى سعد وفى وصية المثنى لسعد بن أبى وقاص، ويستفاد من كتاب عمر من ناحية ومن وصية المثنى من ناحية أخرى أن المسلمين واجهوا الخطة الفارسية بالإجراءات الآتية:

الانسحاب وخروج المثنى والقواد الآخرين بحمايتهم من الأرض حتى أخضعوها، ثم التراجع والتفرق فى المياه التى تلى الأعاجم على حدود الأرض الإسلامية الفارسية، فنزل المثنى فى ذى قار ونزل الناس الطف، ومقابلة تجنيد الفرس العام بتجنيد إسلامى عام فالمثنى استنفر الناس وكتب عمر إلى عماله على الكور والقبائل أن لا يدعوا أحد له سلاح أو فرس أو نجده أو رأى إلا انتخبوه ووجهوه إلى المدينة [4] فكانت المعركة الشهيرة معركة القادسية التى تمثل الصراع الحقيقى بين الدولة الساسانية وبين المسلمين، ويتثمل فيها

---

(١) الدكتور حسن أحمد محمود: الإسلام والحضارة ص ١١.

(٢) شكرى فيصل: المرجع السابق ص ٥٦.

(٣) المرجع السابق: ص ٥٦ – ٥٧، والدكتور حسن أحمد محمود: المرجع السابق ص ١٢.

(٤) البلاذري: فتوح البلدان ص ٢٦٤ – ٢٧١، كريستنس ص ٤٨٣، دكتور حسن أحمد محمود: الإسلام والحضارة العربية ص ١٢.

عنف الهجوم من ناحية الفرس ثم عمق المقاومة من ناحية المسلمين، واستمرت ثلاثة أيام انتهت بنصر حاسم كان أشبه بالمعجزات[1].

وكما قررت الحيرة وما تلاها من وقائع مصير العراق العربى فإن موقعة القادسية قررت مصير العراق العجمى، إذ إن الفرس كفوا عن الهجوم فى هذه المنطقة وأسلموها غنيمة للمسلمين الذين انفتحت أمامهم سهول العراق، بدليل أن المسلمين دخلوا العاصمة المدائن دون مقاومة، والبلاذرى يعطينا صورة طريفة عن اللقاء الأول بين المسلمين.

* * *

(١) البلاذرى: المصدر السابق ص ٢٧٢ – ٢٧٣ ، دكتور حسن أحمد محمود – المرجع السابق ص ١٣.